القبس
الأربعاء ١٩٩٩/١٢/٨ - العدد ٩٥١٠

على هامش المؤتمر النفطي العالمي (١)

حقول النفط وعقول اللغط

بقلم: حمد محمد المرعي

لو لم تكن هناك خبرات اجنبية - وبالذات الـ «غربية» منها، لما استدل لا في الكويت ولا في غيرها من دول المنطقة على ثرواتنا الاقتصادية (ونعني النفط) التي اوصلت بلادنا الى هذه المصاف، ولولا هذه الخبرات لظلت هذه الثروة دفينة التراب ليس فقط لاعوام مقبلة بل لعقود قد يطول بها الاجل. وعندها لما كان لنا هذا اللسان وهذه الشروط التي نتباهى بها على الساحة الدولية، وبقليل من التواضع فلو لم تكن هناك هذه السيارات والطرق والنظم المرورية المفصلة، بأسلوب او باخر، بتصميم وتصنيع وتطوير اجنبي - وايضا وبالاخص «غربي» - لماتباهينا نحن او هؤلاء او اولئك المعارضون او المتحفظون او المترددون او المسيّسون لذات الحال والمدججون بالبياجر والهواتف النقالة ايضا والمستوردة ايضا، وبقطع غيارها من الخبرات الاجنبية، وكما هو معروف للجميع فالكشف هنا يطول، ولكن ليس هذا بيت القصيد، والا لانتهينا بانه ومن دون الخبرة الاجنبية فانه قد لا يمكن لنا حتى توفير الزيتون والجبنة في احسن الاحوال.

وان كان ذلك كذلك فلا الكويت ولا سائر دول المنطقة بمساحتها وسكانها وثرواتها ومواردها، الاساسية والهامشية المحدودة، يمكنها من ان تضاهي مدينة او مقاطعة مما تزخر بها هذه الكرة الارضية الشاسعة والمزدحمة وذات الديناميكية الفائقة، وعليه فان الانفتاح السياسي الدفاعي الاقتصادي الاجتماعي الفكري الثقافي العلمي التقني (باختصار: الحضاري) في عصرنا الحاضر لا يمكن ان يعتبر ترفا او خيارا بل مطلبا حيويا اساسيا ليس لنا حرية المساومة عليه، ويجب ان لا يخفى على من يتحفظ ان لـ«العولمة» مساوئ على ان لكل ظاهرة ايجابياتها وسلبياتها، الا ان الحقيقة تظل ان الـ«عولمة» مورست وتمارس منذ بدء الخليقة وتنوعت وتكثفت بدرجات رقي الخلق عبر العصور الى ان اصبحت تكاد تكون فرضا واجبا

بداية بعصر الاكتشافات الجغرافية والثورة الصناعية الى ان وصلت الى تقنية الاتصالات وثورة المعلومات. والطريق بكل تأكيد مازال سالكا لمزيد من الرقي في الحضارة الانسانية والبشرية ولمزيد من الاتصال والتواصل، نعم قد يكون هناك غبن او هناك ظلم او هناك ازدواجية في عدالة توزيع المصالح، ولكن تخطي هذا، وكما علمنا التاريخ، لا يمكن ان يكون بالعزلة والانكفاء على الذات بل بزيادة الانفتاح على الاخرين، والا لقبرنا انفسنا بانفسنا.

والفرق بين العولمة الخيرة والعولمة السيئة - ان جاز التعبير، هو ما تمليه علينا الحكمة والتعقل في الاختيار ومتطلبات الاحتياج والتعامل،وان كان رسولنا الكريم قد اوصانا بـ «اطلبوا العلم ولو في الصين»، فان طلب المعرفة من اصحابها واستعارة ادواتها وتقنياتها المتطورة ممن هم اخبر منا لا يمكن ان يكون عيبا او انتقاصا او «استعمارا!» بل هو فطنة وذكاء وضرورة في ادنى احوالها، اولم يذكرنا سبحانه وتعالى في صادق كتابه الكريم «وفضلنا بعضكم على بعض درجات»،اولم يستعر او يسرق الغرب، عندما كان يغط في سباته العميق،الكثير من انجازاتنا العربية عندما كانت في كامل اوجها الحضاري؟ انظر: «الخوارزمي: ابوالجبر» لـ عائشة حمد المرعي، وكذلك «شمس العرب تسطع على الغرب» للمورخة زيغريد هونكة (ترجمة: فاروق بيضون). وهل المطلوب منا اختراع العجلة مرة اخرى ولكن بمواصفات كويتية مثلا؟ ترى هل ستكون مثلثة ام مربعة ام ماذا؟!!.

من ذلك فان هذا الموضوع يجب ان لا تطول مناقشته الا اذا كان هدف البعض تسييس هذه المسألة وخلط الاوراق وبعثرة الجهود ومواقع المساءلة لتأتي النتيجة عكسية على الادارة والاقتصاد والتطلعات كما يحدث في كثير من امورنا المطروحة. وخاصة اذا ما روعي ان البدائل المتوفرة امام الاقتصاد الوطني ضئيلة وضيقة الى ابعد الحدود، وكل ما قيل ويقال عن قنوات ومنافذ لمصادر دخل وطني داعم او موازٍ لا تعدو او تتعدى في شكلها ومضمونها كونها هامشية او غير عملية او ان تكلفتها المادية او الفنية اوالادارية اذا لم تساو فانها تزيد عن مردودها.

ولهذا فان الاستعانة بالخبرات والمعارف والاستثمارات الاجنبية لهي السبيل المختصر لاستنهاض المجتمعات، وبالاخص في عصرنا الحاضر، الذي تعاني فيه منطقتنا من التبعات الاقتصادية لغزو الكويت وحرب تحريرها، وما يجري هناك من توحيد للدول الاوروبية وبالاضافة لانفراد الولايات المتحدة بزعامة العالم، في وقتنا الحاضر على الاقل، بعد تفكك النظام السوفيتي وتلاشي التقطب الدولي، هذا من ناحية ومن ناحية اخرى فان استعانة دول المنطقة بالخبرات الاجنبية للاستكشاف واستثمار مواردها النفطية او غير النفطية هو امر لا بد ان نسلم به في اوقاتنا العصيبة هذه على الاقل. والا فكيف نحل لانفسنا الاستثمار في بلاد الغير ونحرّم على الغير مشاركتنا الاستثمار في بلادنا؟. بالطبع هناك ضوابط وقيود وشروط تمليها الرقعة الجغرافية والتوجهات الاقتصادية.. الخ. الا ان هذا يجب ان لا يقف حجر عثرة امام تطوير البلاد والمنطقة قبل فوات الأوان، او قبل الزيادة في التخبط والتدهور الاقتصادي الجاري حولنا.

وما المؤتمر النفطي العالمي الذي عقد في الكويت اخيرا الا بداية طيبة نرجو ان لا تكون متأخرة لاستمرار تنمية هذا البلد الخير المعطاء، وللحديث بقية عن بعض الابعاد الاخرى لهذا الموضوع الهام ان شاء الله.